رياض الصالحين
من كلام سيد المرسلين

زاد المتقين ودليل السالكين

دراسة شاملة في منهج الكتاب وأثره

مع لمحة عن سيرة مؤلفه الإمام العلم: محيي الدين النووي

❖ مقدمة: في رحاب بستان النبوة

في بستان السنة النبوية العطر، وبين أفياء الحكمة المحمدية، يبرز كتابٌ فريد كروضةٍ غنّاء، يستظل بظلالها السالكون، ويقتات من ثمارها الصالحون. إنه كتاب "رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين"، تلك الدرة النفيسة التي صاغتها يد الإمام العالم، والزاهد العابد، محيي الدين يحيى بن شرف النووي - رحمه الله.

لم يكن "رياض الصالحين" مجرد كتاب يُضاف إلى رفوف المكتبة الإسلامية، بل كان مشروع حياة، ومنهج تربية، ودستور أخلاق، ونبراس يضيء الدرب لكل مسلم يرجو الله واليوم الآخر. ومنذ أن خُطَّت صفحاته الأولى قبل قرون، لم يزل هذا السفر المبارك رفيق المسلمين في بيوتهم ومساجدهم وحلقات علمهم، ينهلون من معينه الصافي، ويرتوون من أحاديثه الشريفة التي تهذب النفس، وتقوّم السلوك، وتصل العبد بربه.

في هذا الكتيب، سنبحر معًا في رحلة تعريفية شاملة لهذا الكتاب العظيم، نتوقف عند محطاته الرئيسية، ونستكشف منهجه الدقيق، ونتعرف على سيرة مؤلفه الفذ الذي أوقف حياته لخدمة دين الله.

❖ الفصل الأول: الإمام النووي - سيرة علم وعمل

لا يكتمل الحديث عن "رياض الصالحين" دون الوقوف على سيرة مؤلفه، فالكتاب مرآة تعكس علم صاحبه وورعه وتقواه.

❖ اسمه ونشأته:

هو الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مُرِّي الحزامي الحوراني الشافعي، المعروف بـ الإمام النووي .وُلد في قرية "نوى" من قرى حوران في بلاد الشام (جنوب سوريا حاليًا) في المحرم من عام ٦٣١ هـ.

نشأ في بيت صلاح وتقوى، وظهرت عليه علامات النبوغ والذكاء منذ صغره. عُرف عنه انشغاله بالعلم عن أقرانه، حتى إنهم كانوا يتحايلون عليه ليشاركهم اللعب، فيفر منهم باكيًا لانشغاله بحفظ القرآن الكريم.

❖ زهده وورعه:

كان الإمام النووي مضرب المثل في الزهد والورع والتقشف. عاش حياة بسيطة، معرضًا عن ملذات الدنيا، مكتفيًا بالقليل من الطعام واللباس الخشن. كان وقته كله موقوفًا على العلم والعبادة والتعليم والتأليف. يُروى أنه لم يتزوج، ولم يسكن في دار فاخرة، بل كرس حياته كلها لخدمة السنة النبوية. كان آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم، وله مواقف مشهورة مع الحكام والأمراء في زمانه.

❖ رحلته العلمية ومؤلفاته:

انتقل إلى دمشق عام ٦٤٩ هـ، وكانت حينها منارة العلم والعلماء. لازم كبار شيوخ عصره، ونهل من علومهم في الفقه والحديث واللغة وغيرها، حتى برع وفاق أقرانه. تولى مشيخة "دار الحديث الأشرفية" بدمشق، وهي من أرقى المناصب العلمية آنذاك.

ترك الإمام النووي تراثًا علميًا ضخمًا رغم قصر حياته، فمؤلفاته تتميز بالتحقيق الدقيق والأسلوب السهل والبركة العظيمة. من أبرزها:

- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين.
- الأربعون النووية :متن صغير جمع فيه ٤٢ حديثًا من جوامع كلم النبي ﷺ.
- المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج :وهو من أعظم شروح صحيح مسلم.

- المجموع شرح المهذب :موسوعة فقهية ضخمة في الفقه الشافعي.
- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار :كتاب عظيم في الأذكار والدعوات.

❖ وفاته:

بعد حياة حافلة بالعلم والعمل الصالح لم تتجاوز ٤٥ عامًا، عاد الإمام النووي إلى مسقط رأسه "نوى"، وتوفي بها في الرابع والعشرين من شهر رجب عام ٦٧٦ هـ. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

❖ الفصل الثاني: كتاب رياض الصالحين - منهجية وبناء

يُعد "رياض الصالحين" نموذجًا فريدًا في التأليف، حيث جمع بين دقة المحدث، وفقه الفقيه، وروحانية المربي.

❖ معنى اسم الكتاب وهدفه:

اسم الكتاب وحده يحمل دلالة عميقة. فـ "الرياض "جمع روضة، وهي البستان المليء بالأزهار والثمار، و "الصالحين "هم أهل الاستقامة والتقوى. فكأن المؤلف يدعونا إلى التجول في بستان يانع، نقطف من ثماره ما يصلح قلوبنا وأعمالنا، ويقودنا إلى طريق الصالحين.

وقد أوضح الإمام النووي هدفه في مقدمة الكتاب، حيث قال إنه أراد أن يجمع كتابًا مختصرًا يشتمل على ما يكون "سائقًا إلى الآخرة، ومؤدبًا في الباطن والظاهر، جامعًا للترغيب والترهيب وسائر أنواع آداب السالكين."

❖ منهجية التأليف:

اتبع الإمام النووي منهجية علمية وتربوية بديعة، يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١. التقسيم الموضوعي :قسّم الكتاب إلى "كتب"، وكل كتاب إلى "أبواب". يبدأ بـ "كتاب المقدمات "الذي يضم أبوابًا تأسيسية كالإخلاص والنية، والتوبة، ثم ينتقل إلى كتب متخصصة مثل: كتاب الأدب، كتاب آداب الطعام، كتاب اللباس، كتاب آداب السلام، كتاب عيادة المريض، وصولًا إلى كتاب الاستغفار. هذا التبويب يسهل على القارئ الوصول إلى الموضوع الذي يريده.

٢. الجمع بين القرآن والسنة :يبدأ كل باب بآية أو آيات قرآنية تتعلق بموضوع الباب، ليؤصل للمسألة من كتاب الله أولًا، ثم يتبعها بالأحاديث النبوية الشريفة التي تشرح الموضوع وتفصّله.
٣. دقة اختيار الأحاديث :تحرى الإمام النووي أن تكون معظم أحاديثه من الصحيحين (البخاري ومسلم) أو من الأحاديث الصحيحة والحسنة في السنن المعتمدة الأخرى. وإذا أورد حديثًا فيه ضعف يسير، فإنه غالبًا ما ينبه عليه، ويكون في فضائل الأعمال والآداب.
٤. الوضوح والابتعاد عن التعقيد :تجنب الإمام النووي ذكر أسانيد الأحاديث الطويلة، واكتفى بذكر الصحابي الراوي ومصدر الحديث، مما جعل الكتاب سهل القراءة والفهم لعامة المسلمين وليس للمتخصصين فقط.
٥. شرح الغريب :يقوم أحيانًا بشرح بعض الكلمات الغريبة أو المصطلحات التي قد لا يفهمها القارئ العادي، مما يزيد من فائدة الكتاب.

❖ هيكلة الكتاب ومحتواه:

يحتوي الكتاب على ما يقارب 1900 حديث، موزعة على 372 بابًا ضمن 19 كتابًا رئيسيًا .وتغطي هذه الأبواب كل جوانب حياة المسلم:

- العبادات القلبية :الإخلاص، المراقبة، اليقين، التوكل.
- العبادات العملية :فضل الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج.
- الأخلاق والسلوك :الصدق، الصبر، بر الوالدين، صلة الرحم، حق الجار، إكرام الضيف.
- الآداب الاجتماعية :آداب السلام، الاستئذان، الحديث، الطعام والشراب.
- المعاملات :تحريم الظلم، الغيبة، النميمة، الكذب.
- الرقائق والزهد :فضل الزهد في الدنيا، ذكر الموت، أهوال يوم القيامة.

❖ الفصل الثالث: أهمية الكتاب وأثره في الأمة

لم يكتسب "رياض الصالحين" شهرته وقبوله الواسع من فراغ، بل لأسباب جعلته منارة هدى عبر العصور.

١. منهج تربوي متكامل :يُعتبر الكتاب بمثابة منهج تربوي متكامل، يأخذ بيد المسلم خطوة بخطوة ليرتقي في سلم الإيمان والأخلاق. فهو يصلح ليكون مرجعًا للأسرة، ودستورًا للمجتمع، ودليلًا للفرد.

٢. القبول العام :حظي الكتاب بقبول منقطع النظير لدى علماء الأمة وعوامها على اختلاف مذاهبهم. فلا يكاد يخلو مسجد أو بيت مسلم من نسخة منه، وقد أصبح جزءًا من التراث الحي للأمة، حيث يُقرأ في حلقات العلم والمساجد بعد الصلوات.

٣. الشمولية والاعتدال :يجمع الكتاب بين جوانب العقيدة والعبادة والأخلاق والسلوك، ويوازن بين الترغيب والترهيب، وبين حقوق الله وحقوق العباد، مقدمًا رؤية إسلامية متوازنة وشاملة.

٤. سهولة الوصول :بفضل أسلوبه السهل ومنهجه الواضح، أصبح الكتاب المدخل الأول لكثير من المسلمين الراغبين في دراسة السنة النبوية والتعرف على هدي النبي ﷺ.

لقد تُرجم "رياض الصالحين" إلى عشرات اللغات العالمية، وانتشر في أصقاع الأرض، ليكون بحق "بستانًا" عالميًا يستقي منه كل باحث عن الحق والهدى.

❖ خاتمة: زاد لا ينضب

يبقى كتاب "رياض الصالحين "بعد مرور أكثر من سبعة قرون على تأليفه، شاهدًا على إخلاص مؤلفه وبركة علمه. إنه ليس مجرد كتاب يُقرأ، بل هو رفيق درب، ومؤدب نفس، ودليل عمل.

إنه دعوة مفتوحة لكل مسلم ليعيش في رحاب سنة نبيه ﷺ، ويتخلق بأخلاقه، ويسير على دربه. فمن أراد زادًا لسفره إلى الآخرة، ودليلًا في دروب الحياة، ونورًا يضيء له الظلمات، فسيجد في "رياض الصالحين" خير معين وخير رفيق.

رحم الله الإمام النووي، وأعلى درجته في عليين، ونفعنا بعلمه وكتابه، وجعلنا من الصالحين الذين يرتادون رياض الجنة في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين.